المحاضرة9: قضية المنظوم والمنثور

تمهيد:

كلام العرب نوعان منظوم ومنثور؛ لذلك كانت قضية النَّظم والنثر من أهم مسائل الفن وقضاياه، فكان اهتمـــام النقاد بهما فاصلا من خلال المفاضلة بينهما برصد المميزات والخصائص، والمفاضلات تعد من أبرز الميزات للنقد العربي القديم ومن أبرز القضايا النقدية التي عرفت منذ الجاهلية سواء كانت هذه المفاضلات بين شاعر وشاعر أو بين شعر وآخر ،ومنه كيف عرف النقد العربي القديم المفاضلة بين المنظوم والمنثور؟ وأيهما أسبق الشعر أم النثر؟

أيهما أسبق النثر أم الشعر؟ : اختلف النقاد والمؤرخون في أيُّهما أسبق النثر أم الشعر.

1-القائلون بأسبقية الشعر: يرى بعض الدارسين في العصر الحديث أنَّ الشعر أسبق في الظهور من النثر ويستدلون بـ :

-**الشعر** لغة الوجدان ومصدر الخيال والتصوير وهي تظهر عند الفرد مبكرًا .

- تاريخيًا يظهر الشعراء وكُتّاب الملاحم قبل الفلسفة كما عند اليونايين ظهر الشعراء عندهم قبل ظهور الفلاسفة يقول العقاد: "ونعتقد نحن أنّ الشعر أسبق من النثر بزمن طويل، نعتقد هذا ولا نحسب أنّ الدليل القاطع في تقرير هذا الرأي مستطاع ولكنه رأي يقوم على القرائن التاريخية... فمن القرائن التاريخية أنّ الشعراء أقدم من الكُتّاب ومن الناثرين على العموم"[1] .

- **النثر** لغة العقل والفكر وهذه الملكة لا تظهر في أمة إلّا إذا بلغت مبلغًا من التحضر والمدنية والاستقرار، وهذا لم تعرفه البيئة العربية إلّا في عصور متقدمة.

---

[1] - حياة قلم العقاد ص191.

2-القائلون بأسبقية النثر: يذهب كثير من النقاد إلى أسبقية النثر في الظهور من الشعر، إلّا أنّ أغلبه ضاع بسبب عدم نقل الرواة له وذلك لصعوبة حفظه عكس الشعر، يرون أنّه لا يعقل أن تكون أمة لها لغة تتواصل بها ليس لها خطاب نثري من وصية أو خطابة أو رسالة ولإنّه لا يعقل في العرف الادراكي البشري أو يبدع الوجدان ويتخلف العقل والفكر وكذلك يمكن للنثر أن يكون ناقلا للانفعالات البشرية[2]. ويذهب زكي مبارك أنّه كان بالفعل نثر فني في العصر الجاهلي وكانت له خصائصه الفنية والأدبية يقول: "بأنّ الجاهليين عرفوا فن الشعر وفن الخطابة...أنّه كان للعرب نثر فني في الجاهلية...فليعلم القارئ أنّ لدينا شاهدًا من شواهد النثر الجاهلي يصح الاعتماد عليه وهو القرآن[3].

في المفاضلة بين المنظوم والمنثور:

اهتمّ الكثير من النّقاد العرب القدامى بقضيّة المفاضلة بين المنظوم والمنثور اهتمامًا كبِيرًا، وقد خاضوا كثير من النقاد في هذه المسألة ذاكرين أسباب تفضيل نوع على آخر منهم:

1-النقاد المفضلون للشعر: انتصر عدد كبير من النقاد القدامى للمنظوم على حساب المنثور، فمِنْ هؤلاء يذكر أبو حيان" السلاميَّ"، ونقلَ عنه كلاما كان ختامه ، يُقَالُ:" مَا أحسنَ هذه الرّسَالَةَ لَوْ كانَ فيها بيتٌ منَ الشِّعْرِ،ولاَ يُقَالُ: مَا أحسنَ هذا الشِّعْرَ لو كانَ فيه شيءٌ منَ النَّثْرِ،لأنّ صورةَ المنظومِ محفوظةٌ، وصورةَ المنثورِ ضائعةٌ"[4].فيشيرُ إلى حاجة النثر إلى الشعرِ، واستغناء الشعرِ عنهُ، ولكنه لا يفصح عن السبب. وغيره كثير نذكر منهم:

1-1-**أبو علي محمد بن الحسن المظفر الحاتمي**: صاحب كتاب "حلية المحاضرة في صناعة الشعر" يقول في تفصيله المنظوم على المنثور: "ووجدت البلاغة منقسمة إلى قسمن منظوما ومنثورًا وأولى هذين القسمين بالمزية، والقدم للمتقدم، والمنظوم، فإنّه أبدع مطالع

---

[2] – الأدب وفنونه دراسة ونقد، عز الدين إسماعيل ص 75.

[3] – النثر الفني في القرن الرابع الهجري، زكي مبارك ص35 وما بعدها.

[4] – الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي ، تح: أحمد أمين وأحمد الزين،دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر والتوزيع،ص: 278.

أونصح مقاطع، وأطول عنانًا، وأفصح لسانًا، وأنور أنجمًا وأنفذ أسهمًا وأسير لفظًا ومعنًى... والمنظوم أرشق في السماع وأعلق بالطباع...والمنظوم أهز لعطف الكريم، وأجمع لشتات محاسنة..."[5]، غير أنّنا نجده يستدرك ليقول إنّ المنثور أفضل إذا لم تتوفر في المنظوم تلك الأوصاف فيقول: "فإذا كان غير معتدل النظم، ولا متناسب القسمة ولا مقبول العبارة وكانت معانيه بعيدة، وألفاظه شريدة...فسليم المنثور، – وإن عطل من حلي البيان وتعرى من حلل الإحسان– أعذب شربًا وأكرم عرفًا"[6] .

1–2–عبد الكريم النهشلي: صاحب كتاب الممتع في صنعة الشعر يقول: "ثم خير كلام العرب وأشرفه عندها هذا الشعر الذي ترتاح له القلوب وتجذل به النفوس، وتصغي إليه الأسماع، وتشحذ به الأسماع وتحفظ به الآثار وتقيد به الأخبار"[7].

1–3–المبرّد: مما يذكر للمبرد رؤيته النقدية الثاقبة حين سئل عن بلاغة كل من الشعر والنثر،وكان الجواب في قوله" أن حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى واختيار الكلام وحتن النظم حتى تكون الكلمة مقاربة أختها ومعاضدة شكلها وأن يقرب بها البعيد ويحذف منها الفضول، فإن استوى هذا في الكلام المنثور والكلام المرصوف المسمى شعرا؛ فلم يفضل أحد القسمين صاحبه،فصاحب الكلام المرصوف أحمد لأنه أتى بمثل ما أتى به صاحبه وزاد وزناً وقافية، والوزن يحمل على الضرورة، والقافية تضطر إلى الحيلة، وبقيت بينهما واحدة، ليست ممّا توجد عند استماع الكلام منهما، ولكن يرجع إليهما عند قولهما؛ فينظر أيّهما أشدّ على الكلام اقتداراً، وأكثر تسمّحاً، وأقلّ معاناة وأبطأ معاسرة، فيعلم أنّه المقدّم"[8].

1–4–ابن رشيق القيرواني: فقد خصص بابا في فضل الشعر،ووازن بين المنظوم والمنثور؛ وعنده أن كلام العرب نوعان : منظوم ومنثور ولكل منهما ثالث طبقات: وحددها بالجيدة ’

---

[5] – حلية المحاضرة في صناعة الشعر 124/1.

[6] – نفسه 126/1.

[7] – الممتع في صنعة الشعر ص11.

[8] – المبرد، ص:23.

والمتوسطة ، والرديئة، ثم فصل فيها القول:" فإذا اتفق الطبقتان في القدر، وتساوتا في القيمة، ولم يكن لإحداهما فضل على الآخر، كان الحكم للشعر ظاهرا في التسمية، لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة .)[9]. وعلل ذلك بأن الدَر هو أخو اللفظ ونسيبه وإليه يقاس؛ وبه يشبه . إذا كان منثورا؛ لم يؤمن عليه، من السرقة أو الضياع؛ ولم ينتفع به في الباب الذي له كسب، ومن أجله انتخب؛ حتى و إن كان لهذا الدَر قيمة وقدرا لدى الناس و ثمنا غاليا. أما إذا نظم في سلك كان أصون له من الابتذال؛ وأظهر لجماله وحسنه على الرغم من كثرة الاستعمال! وكذلك اللفظ إذا كان منثورا تبدد في الاسماع وتشتت وتدحرج عن الطباع، واستثنى من ذلك اللفظة المفرطة الجمال التي يقر لها قرار وإن كانت هي اليتيمة؛ ونسبتها في المنثور واحدة من ألف.وبعد أن أعطى هذا التحليل للفظة الفارطة واللفظة الواقعة في سلك الوزن؛والقيد نراه يفضل النظم بقوله :" فإذا أخذه سلك الوزن، وعقد القافية ؛تآلفت أشتاته، وازدوجت فرائده وبناته، واتخذه اللابس جمالا،والمُدخر مالا فصار قِرطُة الآذان،وقلائد الأعناق، وأماني النفوس، وأكاليل الرؤوس، يقلب بالألسن، ويخبأ في القلوب باللب، ممنوعا من السرقة والغصب"[10].

2- النقاد المفضلون للنثر:

2-1- الجاحظ: الذي قال: " وكان الشاعر أرفع قدرا من الخطيب، وهُم إليه أَحوج لردّه مآثرهم عليهم، وتذكيرهم بأيّامهم، فلمّا كثر الشّعر صار الخطيب أعظم قدرا من الشّاعر"[11]. وقبل الجاحظ قال أبو عمرو بن العلاء كان الشّاعر في الجاهلية يُقدّم على الخطيب، لفرط حاجتهم إلى الشّعر الذّي يُقيّد عليهم مآثرهم، ويفخّم شأنهم ويهوّل على عدوّهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم، ويخوّف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم. فلمّا كثر الشّعر والشّعراء، واتّخذوا

---

[9] - العمدة ،ج1. ص:19

[10] - العمدة ،ج1. ص:20.

[11] - البيان والتبيين،ج1،ص:300

الشّعر مَكسبة، ورحلوا إلى السُّوقة، وتسرّعوا إلى أعراض النّاس، صار الخطيب عندهم فوق الشّاعر"[12]

2-2- أبو منصور الثعالبي: صاحب كتاب "نثر النظم وحل العقد" يفضل النثر على الشعر فيقول: "وأقبل على النثر الذي هو أشرف، وفي طريق الملوك والأكابر أذهب، وأصحابه أفضل ومجالسهم أرفع، ولم تزل ولا تزال طبقات الكُتّاب مرتفعة عن طبقات الشعراء، فإنّ الكتاب هم ألسنة الملوك"[13].

2-3- أبو القاسم الكلاعي الاشبيلي: صاحب كتاب "إحكام صنعة الكلام" الأصل في الكتاب أنّه في نقد النثر، بَيَّن فيه أسس صناعة النثر، فكان يفضل النثر على الشعر، ففي فصل الترجيح بين المنظوم والمنثور يقول: "إنّ الترجيح بين المنثور والمنظوم يَمٌّ قد خاض فيه الخائضون وميدان قد ركض فيه الراكضون، ورأيي أنّ القريض قد تزين من الوزن والقافية بحلة سابغة ضافية، صار فيها أبدع مطالع وأصنع مقاطع وأبهر مباسم، وأنور مباسم، وأبرد أصلا، وأشرد مثلا، وأهز لعطف الكريم وأفل لغرب اللئيم، لكن النثر أسلم جانب وأكرم حاملا وطالبا... لأنّ الشعر داعٍ لسوء الأدب وفساد المنقلب"[14] .

<u>أسباب تفضيل النقاد الشعر على النثر</u>: يمكن إجمالها في ما يلي:

- سهولة حفظ المنظوم لتميز الشعر بالنظم "الوزن والقافية".
- يمثل الشعر نموذجًا للشواهد اللغوية والنحوية والبلاغية عند أهل النحو والبلاغة.
- تقول العرب "الشعر ديوان العرب" سجل تاريخهم ومآثرهم وأنسابهم وانتصاراتهم وأخلاقهم وبيئتهم.

---

[12] - نفسه، ص:230.

[13] - نثر النظم وحل العقد، ص06.

[14] - إحكام صنعة الكلام، ص44.

- رفع مكانة الشاعر في القبائل العربية، فقد كانت تهنئ بعضها بعضا وتقيم الولائم إذا ما نبغ لديها شاعر،فهو يحمي أعراضها ويخلد مآثرها بين الناس ويشيد بذكرهم بين القبائل المجاورة.

<u>أسباب تفضيل النقاد للنثر</u>: يلخص المرزوقي ثلاثة أدلة لأفضلية النثر على الشعر وهي:

1-أن ملوك العرب قبل الإسلام وبعده كانوا يتبجحون بالخطابة والافتتان بها ويعدونها أكمل أسباب الرياسة وأفضل آلات الزعامة .

2-أنهم اتخذوا الشعر مكسبة وتجارة ،وتوصلوا به إلى السوقة كما توصلوا به إلى العليـة، وتعرضوا لأعراض الناس ،فوصفوا اللئيم عند الطمع فيه بصفة الكرم ،والكريم عند تأخر صلته بصفة اللئيم .

3-كما كان زمن النبي –صلى الله عليه وسلم –زمن الفصاحة والبيان ،جعل الله معجزته من جنس ما كانوا يولعون به وبأشرفه فتحداهم بالقرآن كاملا منثورا لا شعرا منظوما.[15] .

كما يذهب أبو حيان التوحيدي في معرض المفاضلة بين جنسي النثر والنظم إلى أن النظم صناعي محصور بقيود الوزن والقافية ،وأنه مُعرّض للزحاف على خلاف النثر الـذي لا يكون إلاّ بديهة وطبيعة في الإنسان وهو خارج عن دائرة العروض ومستلزماته، وعلى هذا فإن تحرر الكلام المنثور من قيد الوزن والقافية يجعله متسما بالاتساع والامتداد :"مبرأ من التكلف ،منزه عن الضرورة ،غني عن الاعتذار والافتقار ،والتقديم والتأخير والحـذف والتكرير "على خلاف الكلام المنظوم الذي يتخبط في حصار الوزن ومستلزمات علـم العروض وقيود التأليف[16].

---

[15] – شرح ديوان الحماسة1/16) .

[16] – الإمتاع و المؤانسة139/ 2).